قرن القضية

27-6-2003

وأول ما استهدفته عملية التشويه هذه إنما كان القضية العربية, والفكرة الاسلامية, اللتان نالتا كل ما يمكن لعدو أن يصنعه بعدوه, من تمويه وخديعة وكذب وافتراء واغتصاب ومحاولات متكررة للذبح والتمثيل بهما وبأبشع طريقة ممكنة, جعلت من الرأي العام العالمي سلاحا جديدا في القرن العشرين بيد الغرب, سخره لخدمة صنيعته العبرية, التي هي محور معاناة هذه الأمة, وفي صراعه معها تكمن القضية التي حددت طبيعة علاقاتنا كلها الداخلية والخارجية, الانسانية والثقافية والفكرية والاقتصادية.

بقلم نوال السباعي

لئن كان من سمة أساسية تخصنا في القرن العشرين الذي ودعه العالم قبل ثلاثة أعوام في حين مازالت المنطقة العربية تعيش في أول حقبة من حقبه السياسية والاجتماعية والتاريخية!!, هي أنه كان وبحق قرن القضية التي ولدنا وعشنا وسنموت, وهي تنبض جرحا متمزقا في صدورنا, وهَماً مؤلماً يعيش معنا, يوحدنا ويجمع شتاتنا في هذا الأتون المسمم الذي طأطأنا رؤوسنا ودخلناه مع الداخلين.

ففي بداية هذا القرن "الكريستياني - اليهودي" (حسب التسمية التي يطلقها الغربيون أنفسهم عليه), كنا وعلى الرغم من المرض والشيخوخة, واحدة من أكبر الأمم التي عرفها التاريخ, فمزقت وطعنت ودكت حصونها من الداخل, عندما رضي العرب التقزم باسم التحرر القومي, فانسلخوا عن دولة الخلافة, وانكمشوا إلى منطقتهم العربية المشتتة شعوبا وقبائل خاضعة لإرادة وحكم وتخطيط المستعمر, الذي مالبث أن خرج من ساحة وجوده العسكري في أرضنا بعد نضال مرير, لنخوض بعدها نضالا مريرا ضد بعضنا بعضا, وقد شُغلنا عن القضية التي علقنا عليها كل مآسينا.

وتمخضت الحروب والصمود ومظاهر التحدي والقمع والقهر, عن أمة ممزقة واجمة وقد ابتليت بمعضلة هائلة, وإذا بنا وفلسطين قضية مستقلة بذاتها عن العرب والمسلمين جميعا, واذا بنا نتسابق لعقد الصفقات مع العدو, واذا بهذا العدو, يتجرد عن صفة العداوة, ويصبح صديقا نحاوره في فضائياتنا, ونجد لهذا الوضع فتاوى, ونظريات في علم الاجتماع والنفس, وإذا ببعض أجهزة إعلامنا تنقلب أبواقا لبث ثقافة السلام والوئام, وأن ليس بالإمكان إلا ما هو كائن ! .. لولا... أن انتفاضة الأقصى التي انفجرت في مطلع هذا القرن الجديد وجهت لطمة قاسية لدعاة التطبيع المتهافتين للانبطاح أمام العدو.

وماهي صيغ هذا السلام الذي فرض علينا ويجب أن نرضى به ؟؟ صافحنا العدو وذهبنا نؤبن موتاه, ألغينا ميثاقنا وعهودنا وشرفنا واستغنينا عنها جميعا, وجهنا كل أسلحتنا إلى صدورنا وصدور أبناء عمومتنا, رضينا بترسيب - وليس تذويب - القضية, لأنها غير قابلة للذوبان حتى لو أردنا, ناقشنا تقسيم القدس, ومسألة نقل المسجد الأقصى . صممنا آذاننا عن معاناة الشعب العراقي مزدوج المحنة وضربنا صفحا عن معاناة شعب فلسطين المصابر, ورفضنا الالتفات إلى قضية أسرى الكويت ..حيث كانوا ومعهم عشرات الآلاف من الأسرى وسجناء الفكر والرأي والسياسة في سجون العرب الممتدة على طول خارطة هذا الوطن الحزين وعرضها. ولم نعر أي انتباه لاحتراق الجيل الحالي بلهيب الضياع والصدمة والخيانة, جيل يبحث عن الهوية فلا يعرف هل هو مسلم أم عربي أم أمريكي؟ أين يقف وإلى من ينتمي؟ ومن هو عدوه ومن هو صديقه؟ يمد بصره نحو حدود هذه الأمة فيرتد بصره حسيرا إلى دبابات ومصفحات وألغام, مهمتها الوحيدة تكريس الحدود والسدود القطرية والوطنية الممسوخة والمصالح الفردية.. وقبل ذلك وبعده حماية أمن وحدود واستقرار "اسرائيل"!.

ثم ماذا بعد هذا الوضع المأسوي لأمتنا على مشارف ألفيات الآخرين؟ هل توقع أولو الأمر في بلادنا بفرض السلام الأشر علينا أن تحدث انقلابات كيميائية في خلايا أدمغتنا فتجتاحنا حالات هياج غرامي عشقي مفاجيء نحو "اسرائيل" - الشريكة - وشعبها المتحضر الذي يمتلك الحق في أن يحاسب رئيس دولته الفخري حتى على الهدايا والهبات الشخصية التي تلقاها أثناء فترة رئاسته. هل اعتذرت "اسرائيل " - الصديقة - عن تشويه صورتنا في هوليودها خلال قرن بكامله ؟. وهل اعتذرت عن بقر بطون نسائنا في دير ياسيننا أول القرن, وذبح العزل الأبرياء في صبرا وشاتيلا آخره؟.

وهل كان الغرب سيكافئنا على حسن سلوكنا المرتقب فيوقف امتصاصه لدمائنا وبترولنا وعقولنا, وامتهانه لإنساننا وحضارتنا ووجودنا؟ هل كان الاتحاد الأوربي والولايات المتحدة الأمريكية سيتركوننا وشأننا ويتركون التفكير المضني في بترولنا وصِدام حضارتهم مع حضارتنا !؟ .

وحكامنا وكبراؤنا ومسؤولونا ؟؟ ...ماذا سنفعل بهم؟ ومن سيحاكمهم؟ ومن سيسألهم عن التفريط والبيع والشراء باسم القضية؟ ومن سيحقق معهم في كل المجازر التي ارتكبت وكل الانفس التي أزهقت , وكل الأنفاس التي كممت ادعاء لمصلحة القضية؟, وكيف سيحاسبون على أموال الأمة وأجيالها والتي ضيعت هنا وهناك وبعضها أنفق على القضية؟, ومن سيناقش المفاوضات السرية والعلنية التي مرغت في الذل رأس الأمة, والحروب والمعارك الكبيرة والصغيرة التي خسروها وقد شنت جميعها على اختلاف أهدافها باسم القضية؟.

وهل كانت ستتغير مع قدوم القرن الجديد وعقد كل هذا الكم الهائل من معاهدات الاستسلام المتعاقبة دون كلل ولا ملل, هل ستتغير معادلات الشرعية الدولية الساقطة اليوم؟, فتتحول إلى العدل والإنصاف بسبب اعجابها الشديد بسواد عيوننا؟ وهل سنعيش بعد ذلك كله في أمان وسبات, ونخلف صبيانا ونرضى أخيرا بما رزقنا الله إياه من بنات, ونضرب صفحا عما فات؟؟. هل ستزدهر حياتنا, وتفتح السجون أبوابها, ويرتفع القهر عن إنساننا؟.

مالذي سيحدث بعد الفراغ من مسلسلات الذل ونهب الحقوق ؟ مالذي ينتظر وجودنا المريض, وجسدنا المنهك بالجراح, وبقية الكرامة التي مازالت تتنفس متشبثة بالحياة, رغم أنف هذا الحاضر الكئيب, ورغم أنف العشرة بالمائة من المتفلسفين المخذلين المبررين, واليائسين القاصرين عن فهم ملابسات دورات التاريخ , وتمرد الجغرافية, وصحوة الأمم والشعوب, التي تمر ودائما عبر بوابة معادلة الحق الذي لايمكن أن ينقلب إلى باطل ولو شوهته أيدي الضلال والانحراف, وأضعفت من جنوده وأنصاره, ومعادلة الباطل الذي لن يكون حقا قط حتى لو اجتمع أهل الارض على التأكيد على شرعيته وقوته ومضائه .

لقد انصرم القرن العشرون, وأطلت تباشير قرن جديد على هذا العالم الذي ملئ بالظلم والآلام, وخضع لسطوة الحضارة الغربية, وظلمها, وورث آفاتها, دون أن تحاول الشعوب المتخلفة محاكاة هذا الغرب في الايجابيات التي بلغ بها هذا الشأو, الذي جعله يتحكم في رقاب البشر والدول, كما يتحكم في رؤية الشعوب للتاريخ والحاضر .

وأول ما استهدفته عملية التشويه هذه إنما كان القضية العربية, والفكرة الاسلامية, اللتان نالتا كل ما يمكن لعدو أن يصنعه بعدوه, من تمويه وخديعة وكذب وافتراء واغتصاب ومحاولات متكررة للذبح والتمثيل بهما وبأبشع طريقة ممكنة, جعلت من الرأي العام العالمي سلاحا جديدا في القرن العشرين بيد الغرب, سخره لخدمة صنيعته العبرية, التي هي محور معاناة هذه الأمة, وفي صراعه معها تكمن القضية التي حددت طبيعة علاقاتنا كلها الداخلية والخارجية, الانسانية والثقافية والفكرية والاقتصادية.

إن القرن العشرين شهد أحداثا جساما إلا أن أعظمها على الاطلاق لم يكن تفجير قنبلة هيروشيما, ولكنه كان قرار منح يهود العالم والأوربيين منهم على وجه التحديد وطنا قوميا لهم في فلسطين. ومع ذلك، فالغرب ماض في مخططاته تلك, وعلى الرغم مما بلغه من شأن علمي وعسكري لإحكام سيطرته على العالم, ومن ثم فرض تصوراته على حل مشاكله, وعلى رأسها مشكلتنا التي أطلق عليها "معضلة الشرق الأوسط"!, لن يستطيع أن يرسم معالم المستقبل, وإن كان لا يدخر ذخرا في التنظير والتبشير برؤيته الخاصة لها. فالمستقبل بيد الله وحده, ثم بيد هذه الشعوب التي لن يطول رقادها إلى أبد الآبدين, لأن الأجيال الميتة لن تلبث حتى يأتيها الموت حقا, لتفسح المجال لأجيال أخرى ودماء جديدة, سوف تكون أكثر وعيا وأشد إخلاصا, وأكثر قدرة على افتداء المقدسات التي سمحنا نحن ببيعها, والتفريط فيها, وأخلدنا إلى الأرض, وجلسنا هامدين نتفرج على قرون الآخرين الماضية بكرامتنا ووجودنا ووحقوقنا.